

حين ينتصر المبدأ فلسفة الثبات في مسيرة الإنسان

إعداد

مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية



مقدمة

يُعدّ مفهوم الثبات من القيم الأخلاقية المركزية في البناء الفكري والديني للمجتمعات الإنسانية، إذ يمثل القدرة على التمسك بالحق والمبدأ رغم الضغوط والتحديات. ولا يقتصر الثبات على كونه موقفًا أخلاقيًا فرديًا، بل يتحول في لحظات تاريخية معينة إلى قوة اجتماعية تُعيد تشكيل الوعي الجمعي للأمم. لذلك كان الثبات أحد أبرز السمات التي ميّزت مسيرة الأنبياء والمصلحين عبر التاريخ، كما تجسد في تجارب النضال الوطني والديني لدى الشعوب التي واجهت الظلم والاستبداد. وانطلاقًا من ذلك، يسعى هذا المقال إلى قراءة مفهوم الثبات بوصفه قيمة أخلاقية وفكرية، مع تتبع جذوره في التجربة الدينية للأنبياء وأهل البيت، ثم تحليل حضوره في التجارب النضالية المعاصرة، بوصفه أحد العوامل التي تحفظ هوية المجتمعات وتمنحها القدرة على الاستمرار.

أولاً: مفهوم الثبات ودلالاته الفكرية والأخلاقية

الثبات في اللغة يعني الاستقرار وعدم التزعزع، ويُقصد به اصطلاحًا القدرة على التمسك بالمبدأ أو الموقف الحق مهما تغيرت الظروف أو اشتدت الضغوط. وهو قيمة أخلاقية تتقاطع مع مفاهيم أخرى مثل الصبر، واليقين، والشجاعة الأخلاقية. ومن منظور فلسفي، يرتبط الثبات بقدرة الإنسان على مقاومة الإغراءات أو المخاوف التي تدفعه للتنازل عن مبادئه، فالمجتمعات التي تفتقر إلى هذه القيمة تصبح عرضة للتقلبات الفكرية والسياسية، بينما يشكل الثبات عنصرًا أساسيًا في بناء الشخصية القادرة على اتخاذ موقف أخلاقي واضح، كما أن الثبات ليس جمودًا فكريًا، بل هو التزام بالحق بعد معرفته والاقتران به، فالإنسان قد يراجع أفكاره ويصححها، لكن حين يتأكد من عدالة موقفه يصبح الثبات عليه ضرورة أخلاقية، لأن التراجع عنه بدافع الخوف أو المصلحة يمثل خيانة للقيم.

ثانيًا: الثبات في التجربة النبوية

تمثل سيرة الأنبياء نموذجًا تاريخيًا متكاملًا لمعنى الثبات على الحق، إذ إن الرسائل السماوية في جوهرها كانت مشاريع إصلاح أخلاقي واجتماعي واجهت منظومات راسخة من المصالح والعادات والسلطات، ولهذا لم تكن مهمة الأنبياء مجرد تبليغ فكرة دينية، بل كانت مواجهة بني اجتماعية وثقافية ترفض التغيير، الأمر الذي جعل الثبات شرطًا أساسيًا لاستمرار الرسالة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة حين قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، في إشارة إلى أن طريق الإصلاح محفوف بالابتلاء، وأن الثبات هو الضمانة الأخلاقية لاستمرار الدعوة.

ومن أبرز النماذج في هذا السياق تجربة النبي إبراهيم عليه السلام، الذي واجه مجتمعًا كاملًا يقوم نظامه الديني والثقافي على عبادة الأصنام، ولم يكن موقف إبراهيم مجرد اعتراض فكري، بل كان ثورة معرفية على منظومة الاعتقاد السائدة، حين أعلن بوضوح رفضه لعبادة ما لا ينفع ولا يضر، ويصوّر القرآن هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفِ لَكُمْ أَلِيمًا وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. وقد بلغ الصراع ذروته عندما حطم الأصنام ليكشف عجزها، فحكم عليه قومه بالإحراق، ومع ذلك لم يتراجع عن موقفه، بل بقي ثابتًا على عقيدته حتى في لحظة الخطر، ليتحول إلى رمز خالد للثبات على التوحيد في مواجهة ضغط المجتمع والسلطة.

ويظهر المعنى نفسه في تجربة النبي موسى عليه السلام (في مواجهته لطغيان فرعون، فقد واجه موسى نظامًا سياسيًا استبداديًا يملك القوة العسكرية والهيمنة الاقتصادية والدينية، ومع ذلك وقف أمامه داعيًا إلى تحرير بني "إسرائيل" وإقامة العدل، وقد عبّر القرآن عن هذا الثبات حين أمر الله موسى وأخاه هارون بالذهاب إلى فرعون وقول الحق له: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، ورغم التهديد والبطش، استمر موسى في دعوته، حتى انتهت المواجهة بانتصار الحق وغرق فرعون، ليصبح هذا الحدث نموذجًا تاريخيًا لصراع الإرادة الأخلاقية مع الاستبداد السياسي.

كما تتجلى قيمة الثبات في سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله، الذي واجه في بداية دعوته مقاومة شديدة من قريش، تمثلت في المقاطعة الاقتصادية والتعذيب والتشويه الاجتماعي، ومع ذلك بقي ثابتًا على رسالته، رافضًا كل محاولات المساومة التي عرضت عليه مقابل التنازل عن دعوته، وقد تجسد هذا الثبات في قوله المشهور حين عرضت عليه قريش الملك والمال: "لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته"، وهذا الموقف يعكس أن الثبات في التجربة النبوية لم يكن مجرد صبر سلبي، بل كان إصرارًا واعيًا على استمرار مشروع الإصلاح رغم شدة الضغوط. وتكشف هذه النماذج مجتمعة أن الثبات في التجربة النبوية لم يكن موقفًا روحيًا مجردًا، بل كان فعلًا إصلاحيًا يسعى إلى تغيير الواقع الاجتماعي والسياسي، فالأنبياء لم يكتفوا بالدعوة إلى الإيمان، بل سعوا إلى بناء مجتمع قائم على العدل والكرامة الإنسانية، ومن هنا أصبح الثبات أحد العناصر الجوهرية في مشروعهم الرسالي، لأنه يمثل الضمانة الأخلاقية لاستمرار الحق في مواجهة قوى الظلم والانحراف عبر التاريخ.

ثالثًا: الثبات في مدرسة أهل البيت

في التراث الإسلامي تمثل مدرسة أهل البيت عليهم السلام امتدادًا حيًا للقيم التي جسدها الأنبياء، وفي مقدمتها قيمة الثبات على الحق، فالأئمة من أهل البيت لم يكونوا مجرد علماء أو شخصيات روحية، بل كانوا نماذج عملية في الالتزام بالمبدأ والدفاع عن العدالة، حتى في أصعب الظروف السياسية والاجتماعية، ولذلك فإن دراسة سيرتهم تكشف أن الثبات لم يكن موقفًا عابرًا، بل كان خيارًا أخلاقيًا

واعيًا يقوم على رفض الانحراف والسكوت عن الظلم. ومن أبرز النماذج في هذا السياق موقف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي جسّد في سيرته السياسية نموذجًا فريدًا للثبات على العدالة، فعندما تولى الخلافة واجه مجتمعًا مضطربًا بالصراعات السياسية والمصالح القبلية، وكان بإمكانه أن يحافظ على سلطته عبر المساومات أو استخدام الوسائل القاسية، لكنه رفض ذلك رفضًا قاطعًا، إذ كان يرى أن الحكم في الإسلام ليس سلطة مجردة، بل مسؤولية أخلاقية تقوم على العدل والمساواة، ولذلك قال كلمته المشهورة: "والله لو أُعطيَتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت"، وهذا الموقف يعكس أن الثبات عند الإمام علي لم يكن مجرد صلابة شخصية، بل كان التزامًا عميقًا بالقيم حتى لو أدى ذلك إلى خسارة سياسية أو تصاعد الصراعات.

غير أن التجسيد الأكثر حضورًا لمعنى الثبات في مدرسة أهل البيت تجلّى في موقف الإمام الحسين بن علي عليه السلام، الذي وقف في مواجهة حكم (يزيد بن معاوية) في واحدة من أهم اللحظات المفصلية في التاريخ الإسلامي، إذ رفض الإمام الحسين مبايعة يزيد، لأنه رأى في ذلك شرعنةً لنظام سياسي انحرف عن القيم الأساسية للإسلام، لا سيما فيما يتعلق بالعدل والالتزام الأخلاقي، وكان يدرك أن رفضه لن يكون مجرد موقف سياسي، بل قد يقوده إلى مواجهة غير متكافئة مع سلطة تمتلك القوة العسكرية والقدرة على القمع.

وقد عبّر الإمام الحسين عن فلسفة موقفه بوضوح عندما قال: "إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله"، وهذه الكلمات تكشف أن حركة كانت موقفًا أخلاقيًا هدفه الحفاظ على جوهر الرسالة الإسلامية، فالثبات هنا لم يكن تمسكًا بموقف شخصي، بل دفاعًا عن منظومة القيم التي تقوم عليها الأمة.

وقد بلغت هذه المواجهة ذروتها في واقعة معركة كربلاء سنة 61 هـ، حين وجد الإمام الحسين نفسه مع عدد قليل من أهل بيته وأصحابه في مواجهة جيش كبير، ورغم إدراكه لعدم التكافؤ العسكري، لم يتراجع عن موقفه، لأن التراجع في نظره كان يعني الاعتراف بشرعية الظلم، ولذلك تحولت كربلاء إلى لحظة تاريخية تجسد أسمى معاني الثبات والتضحية.

ولهذا لم تعد كربلاء مجرد حادثة تاريخية، بل أصبحت رمزًا عالميًا للثبات في مواجهة الظلم، فقد جسدت فكرة أن القيم الكبرى لا تُحفظ بالكلمات فقط، بل بالمواقف التي قد تصل إلى حد التضحية بالحياة. ومن هنا أصبحت شخصية الإمام الحسين رمزًا يتجاوز حدود الزمان والمكان، لأنها تمثل الضمير الأخلاقي الذي يرفض الخضوع للباطل مهما كانت كلفته.

إن قراءة تجربة أهل البيت، وخاصة تجربة الإمام الحسين عليه السلام، تكشف أن الثبات ليس مجرد صبر على الشدائد، بل هو قدرة على تحويل الموقف الأخلاقي إلى رسالة تاريخية تستمر في إلهام الأجيال. ولهذا بقيت كربلاء حاضرة في الوعي الإسلامي والإنساني بوصفها درسًا دائمًا في أن الحق قد يُهزم عسكريًا في لحظة معينة، لكنه ينتصر أخلاقيًا في الذاكرة والتاريخ.

رابعًا: الثبات في التجارب النضالية الحديثة

لم يقتصر مفهوم الثبات على التجارب الدينية القديمة، بل ظل حاضرًا في حركات الإصلاح والنضال في العصر الحديث، حيث واجه كثير من العلماء والمفكرين أنظمة سياسية قمعية حاولت إخضاع المجتمع وإسكات الأصوات المعارضة، وفي مثل هذه الظروف يصبح الثبات على المبدأ موقفًا أخلاقيًا يتجاوز حدود الفرد ليغدو مصدر إلهام للأمة.

وفي السياق العراقي المعاصر، برزت نماذج واضحة لهذا الثبات في شخصيات علمائية واجهت الاستبداد دون أن تتخلى عن مسؤوليتها الدينية والاجتماعية، ومن أبرز هذه الشخصيات السيد محمد باقر الصدر، الذي مثل نموذجًا فريدًا للعالم المفكر الذي جمع بين العمق العلمي والشجاعة في الموقف، إذ قدم السيد الصدر مشروعًا فكريًا متكاملًا يسعى إلى إعادة بناء الفكر الإسلامي المعاصر، وإن مسؤولية العالم لا تقتصر على التعليم والتأليف، بل تشمل الدفاع عن كرامة المجتمع وقيمه، ولذلك اتخذ موقفًا واضحًا في مواجهة الظلم، رغم معرفته بحجم المخاطر التي قد تترتب على ذلك، ومع تصاعد الضغوط عليه من قبل السلطة، بقي ثابتًا على مواقفه، رافضًا التراجع عن مبادئه أو تقديم أي تنازل يضيء الشرعية على الظلم، وقد بلغ هذا الثبات ذروته عندما اعتُقل وتعرض لضغوط شديدة، لكنه ظل متمسكًا بموقفه حتى استشهد سنة 1980، ليصبح رمزًا للعالم الذي يضحى بحياته دفاعًا عن الحق.

ويمتد هذا النهج في الثبات إلى شخصية أخرى بارزة في التاريخ العراقي المعاصر، وهي السيد محمد محمد صادق الصدر، الذي أعاد إحياء الدور الاجتماعي للمرجعية الدينية في مرحلة اتسمت بالخوف والصمت العام، ففي تسعينيات القرن الماضي، وفي ظل ظروف سياسية وأمنية قاسية، وهو ما تجسد في إحياء صلاة الجمعة وإقامة خطاب ديني واجتماعي يلامس هموم الناس اليومية، وكان هذا الموقف بحد ذاته تحديًا واضحًا للسلطة السياسية آنذاك، لأنه أعاد إلى المجتمع شعور القدرة على التعبير والمطالبة بالحقوق، ومع تصاعد الضغوط والتهديدات، لم يتراجع السيد محمد صادق الصدر عن مشروعه الإصلاحية، بل استمر في دعوته حتى استشهد سنة 1999، بعد أن ترك أثرًا عميقًا في الوعي الاجتماعي والديني في العراق.

إن ثبات هاتين الشخصيتين يعكس بوضوح أن الثبات في العصر الحديث لم يعد مجرد موقف فردي معزول، بل يمكن أن يتحول إلى قوة اجتماعية قادرة على تحريك الجماهير وإعادة تشكيل الوعي العام. فحين يرى المجتمع نماذج قيادية مستعدة لدفع أثمان باهظة دفاعًا عن المبادئ، يتحول ذلك إلى مصدر إلهام يعزز ثقافة الكرامة والمقاومة.

ومن هنا يمكن القول إن تجربة الصدرين تمثل امتدادًا معاصرًا لمدرسة الثبات التي عرفها التاريخ الإسلامي منذ عهد الأنبياء وأهل البيت، حيث يلتقي الإيمان العميق بالموقف الشجاع، وتتحول الكلمة الصادقة إلى قوة قادرة على تغيير مسار التاريخ.

خامسًا: ثبات الجمهورية الإسلامية في إيران في مواجهة الحروب والضغوط تمثل تجربة الجمهورية الإسلامية في إيران واحدة من أبرز التجارب السياسية في العصر الحديث التي ارتبطت بفكرة الثبات على المبادئ رغم الضغوط الشديدة، إذ أسست هذه الدولة عقب الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 بقيادة الإمام روح الله الخميني، بعد إسقاط نظام محمد رضا بهلوي، ومنذ اللحظة الأولى لقيامها دخلت الدولة الجديدة في سلسلة طويلة من التحديات والصراعات التي استهدفت اختبار قدرتها على الاستمرار والثبات على المشروع السياسي الذي أعلنت عنه.

فلم تمض سوى أشهر قليلة على قيام النظام الجديد حتى واجهت إيران واحدة من أعنف الحروب في تاريخ المنطقة، وهي الحرب العراقية الإيرانية التي اندلعت عام 1980 واستمرت ثماني سنوات، وقد شكّلت تلك الحرب اختبارًا وجوديًا للدولة الوليدة، إذ تعرضت المدن الإيرانية للقصف والمعارك الواسعة وسقط خلالها مئات الآلاف من الضحايا. ومع ذلك تعاملت القيادة الإيرانية مع الحرب بوصفها معركة دفاع عن الثورة واستقلال القرار الوطني، ما جعل الصمود في تلك الحرب جزءًا من الوعي السياسي للجمهورية الإسلامية.

ولم تتوقف التحديات عند تلك الحرب، بل استمرت الضغوط خلال العقود اللاحقة عبر العقوبات الاقتصادية ومحاولات العزل السياسي والاحتواء الإقليمي. كما وجدت إيران نفسها في بيئة إقليمية شديدة الاضطراب، حيث تشابكت الصراعات والحروب في المنطقة، الأمر الذي جعلها تعيش في حالة مواجهة مستمرة مع الضغوط الدولية.

وقد استمر هذا النهج بعد رحيل الإمام الخميني عام 1989، مع تولي السيد علي خامنئي منصب القيادة، وخلال هذه المرحلة سعت القيادة الإيرانية إلى تثبيت مؤسسات الدولة وتعزيز حضورها الإقليمي، مع الحفاظ على الخطاب السياسي الذي يقوم على الاستقلال ورفض الهيمنة الخارجية، غير أن اختبار الثبات لم يتوقف عند حدود العقوبات أو الصراعات السياسية، بل بلغ ذروته في التطورات الأخيرة المرتبطة بالهجوم الأمريكي الصهيوني الذي اندلع عام 2026، والذي شهد تصعيدًا عسكريًا خطيرًا في المنطقة، ففي سياق هذه الحرب تعرضت القيادة الإيرانية لضربة كبيرة تمثلت في اغتيال المرشد الأعلى علي خامنئي في غارة استهدفت مواقع قيادية في طهران في شباط 2026، واستشهاده هو وأهل بيته.

ومع ذلك، فإن التجربة السياسية الإيرانية أظهرت مرة أخرى أن النظام الذي نشأ على فكرة الثورة لا يقوم على شخص واحد بقدر ما يقوم على بنية مؤسساتية وأيديولوجية متماسكة، ولذلك لم يؤدّ اغتيال القيادة العليا إلى انهيار النظام السياسي، بل فتح مرحلة جديدة من إعادة تنظيم القيادة واستمرار مؤسسات الدولة في أداء وظائفها، وإن هذا الامتداد التاريخي من الثورة إلى الحروب المعاصرة يكشف أن الثبات في المجال السياسي ليس مجرد شعار، بل هو قدرة الدولة والمجتمع على الصمود أمام الصدمات الكبرى، سواء كانت حروبًا أو حصارًا اقتصاديًا أو حتى فقدان القيادة العليا.

ولهذا يمكن النظر إلى تجربة الجمهورية الإسلامية في إيران بوصفها نموذجًا لدولة نشأت في ظروف ثورية ثم واجهت سلسلة طويلة من الحروب والتحديات، لكنها استمرت في الحفاظ على مشروعها السياسي عبر التمسك بفكرة الاستقلال والسيادة الوطنية. ومن هنا يتضح أن مفهوم الثبات الذي تجسد في تجارب الأنبياء وأهل البيت لم يبقَ قيمة أخلاقية مجردة، بل تحول في العصر الحديث إلى سلوك سياسي واجتماعي يمكن أن تتبناه الدول والحركات عندما ترى في المبادئ التي قامت عليها جزءًا من هويتها وشرعية وجودها.

سادساً: دلالات الثبات في بناء الوعي المجتمعي

يمكن استخلاص عدة دلالات فكرية واجتماعية من مفهوم الثبات، من أبرزها:

- حفظ الهوية الأخلاقية للمجتمع: إذ يمنع الثبات تحول القيم إلى شعارات قابلة للتغيير حسب المصالح.
- تعزيز ثقافة المقاومة: فالمجتمعات التي تقدّر الثبات تصبح أكثر قدرة على مواجهة الظلم والاستبداد.
- إنتاج نماذج قدوة للأجيال: حيث تتحول الشخصيات الثابتة على مبادئها إلى رموز أخلاقية تلهم المجتمع.
- تحويل التضحية إلى معنى تاريخي: فالثبات يمنح التضحيات قيمة تتجاوز اللحظة الزمنية إلى الذاكرة الجماعية للأمة.

الخاتمة

إن الثبات على الحق والمبدأ ليس مجرد فضيلة أخلاقية فردية، بل هو عنصر أساس في صناعة التاريخ وبناء المجتمعات، وقد أثبتت التجارب الدينية والتاريخية أن الأمم التي تمتلك شخصيات ثابتة على قيمها تكون أكثر قدرة على مواجهة الأزمات والتحديات، ولقد جسّد الأنبياء وأهل البيت هذه القيمة في أسمى صورها، حين واجهوا الظلم والانحراف دون أن يتخلوا عن مبادئهم. كما استمرت هذه الروح في التجارب النضالية الحديثة التي قدم فيها الأفراد حياتهم دفاعاً عن الوطن والعقيدة. وبذلك يمكن القول إن الثبات هو الرابط الذي يجمع بين الرسالة الدينية والنضال الإنساني، لأنه يمثل لحظة التقاء الإيمان بالموقف، والحق بالتضحية، والفكرة بالفعل.

تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٦/٤/٢٠١٢، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلا عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتاجاته العلمية الا بموافقة خطية صريحة، ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- لا تعبر الآراء الواردة في الدراسات او الاوراق البحثية والمقالات عن الاتجاهات الفكرية التي يتبناها المركز وانما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232



Alfaiidcenter2011@gmail.com



www.al-faidh.com



العراق - بغداد - الكرادة

